لمحة تاريخية
عن الحياة العلمية فى الأندلس

بقلم الدكتور

عبد المنعم أحمد هريدى

الأستاذ المساعد للغويات بالكلية

من الثابت تاريخيا أن العرب لم يدخلوا بلداً فاتحين إلا فتحوه لغوياً ، كما فتحوه سياسياً .

يستوى فى ذلك من أهل البلاد من اعتنق الإسلام ، ومن ظل متمسكا بأهداب دينه القديم .

وهكذا كان الحال فى الأندلس ، إن لم تكن الصورة هناك أجلى وأوضح .

فلم يكد يهل القرن الرابع الهجرى هناك حتى هجر المسيحيون اللغة اللاتينية فى طقوسهم الدينية ، واستخدموا العربية مكانها [١] ، وفى هذا الدليل الواضح على مدى تأثر أهل تلك البلاد باللغة العربية ، وتأثيرها فيهم حتى غدت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم ، ومعتقداتهم .

وكان لذلك الأثر الأعظم فى نمو العلوم العربية ، وبخاصة علم النحو الذى أصبح فى نهاية من علو الطبقة .

وكل عالم فى علم ما لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه دقائقه فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالم من الازدراء [٢] .

وبلغ من فرط عنايتهم بالنحو أنه وجد بينهم من يختم كتاب سيبويه كل خمسة عشر يوما مثل/ عبد الله بن محمد بن عيسى بن وليد الأندلسى المعروف بـ (ابن الاسلمي) [٣] .

---

١) نيكلسون : التاريخ الادبى للعرب ص ٥ ٤ .
٢) المقرى : نفح الطيب ٢/١٠٨ ، ٠٩ .
٣) ابن بشكوال : الصلة ، / ٤٥٣ .

وأدت عناية الاندلسيين بعلم النحو إلي ظهور كثير من علمائه فى تلك البلاد ، ومنهم من اكتسب شهرة واسعة النطاق . بعد أن ضرب فى النحو بسهم وافر كابن عصفور الاشبيلي المتوفى سنة ٦٦٣ هـ والشلوبين المتوفى سنة ٦٤٥ هـ الذى قال عنه السيوطى (١) :

(هو آخر أئمة هذا الشأن بالمشرق والمغرب)

ولزاماً علي من يتحدث عن النهضة العلمية فى الأندلس أن يسند الفضل الأكبر فيها إلي الأمويين . فهم الذين بادروا منذ أن استقر الأمر لهم فى الأندلس إلي محاكاة المشارقة ، والاستعانة بهم فى إقامة صرح العلوم ، والفنون .

فقد كان الشرق العربي منذ أوائل القرن الثانى الهجرى مورد العلوم ، ومنبع الثقافات فلم يكن للأمويين بد من الأخذ عن أهله ، والرجوع إليهم عندما أرادوا نشر العلم فى الأندلس .

وجارى الأمراء والخلفاء فى هذه البلاد أهل الشرق فى علومهم ، ومدينتهم فنقلوا ما كان منها عند العباسيين ، وأفسحوا صدورهم وقصورهم للعلماء والأدباء .

ولما انقسمت الدوله الاندلسية إلي دويلات ، وطوائف تعهد أولو الأمر فى تلك الدويلات والطوائف ماغرسه الأمويون ، فآتى ثمارة وجناه الشهى .

---

١) بغية الوعاة ص ٣٥٧ .

وساعد تنافس الملوك والأمراء على تقريب العلماء والأدباء إلى ارتفاع مكانة العلم وأهله .

فأتى على الاندلس عهد كان العلم والأدب هما الوسيلة فيه إلى تولى المناصب الرفيعة فى الدولة .

واستمر الحال فيما بعد عهد ملوك الطوائف كما كان عليه ، حتى كان عهد المرابطين فعظم أمر الفقهاء ، لأن أمراءهم لم يكونوا يقطعون أمرا ، ولا يبتون فى صغير من أمور الدولة أو كبيرها إلا بمحضر أربعة من الفقهاء .

فبلغ الفقهاء فى أيامهم مبلغاً عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم [١] . وعلت مكانتهم .

وجاء الموحدون فسايروا ركب العلم السائر ، وشجعوا العلماء ، وقربوهم واشتركوا معهم .

وهاهو ذا صاحب « المعجب » يتحدث عن عناية زعيم الموحدين محمد بن تومرت بالعلم فيقول [٢] :

(ولقد شهدته بنفسى أمر جماعة ممن كانوا عنده من علماء المدينة بجمع أحاديث من المصنفات المشهورة فى الأحاديث كالبخارى ومسلم ، فجمعوا

---

١) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار أهل المغرب ص ٧٠ .
٢) نفس المرجع ص ٧٨ .

ما أمرهم بجمعه ، فكان يمليه بنفسه على الناس ، ويأخذهم بحفظه) .

والباحث فى تاريخ الاندلس زمان سيطرة العرب عليها يأخذه العجب العجاب من ازدهار العلم والفن ، والأدب فى جو مضطرب ، مليء بالدسائس والفتن فياض بالدماء .

ذلك أن شمس الخلافة الأموية أشرقت في الاندلس سنة ٤٠ هـ تقريبا.

ولم يكد يشرف على الكون هلال القرن الخامس الهجرى حتى توارت شمس الأمويين فى عين حمئة من الفتن والاضطرابات .

فتقوض ذلك البنيان الضخم الذى شادته العبقرية الأموية بقرطبة ، وظللت البلاد سحائب الفناء ، وهددها شبح الانهيار .

وتوزعت العناصر التي كان يستخدمها الأمويون فى الانداس لتقوم دول ملوك الطوائف فى الاماكن المختلفة من البلاد .

هنا تفرقت الاندلس الواحدة إلى أندلسات كثيرة يناهض بعضها بعضا. وتهيأت التربة الصالحة فى هذا الجو المضطرب لنمو بذور الفتن والعداوة بين الملوك والملوك . وبين الملوك والأمراء فتقاتلوا .

ومن المتقاتلين من غلب على أمره وأعوزته دواعى المنى فاستعان باعداء الاسلام على إخوة الإسلام فسنحت لهم الفرصة لهدم صرح شامخ طالما تمنوا هدمه من قبل .

وسعرت نار الحرب في الانداس ، ونزل كثير من المسلمين عما بأيديهم للمسيحيين ، بالقوة حينا ، وبالحيلة . . أو بالمصالحة . . أو كأجر لهم نظير الوقوف معهم ضد إخوانهم المسلمين أحياناً .

بل إن كثيراً منهم أعطى الجزية لأعداء الإسلام عن يد وهو من الخاضعين . واستشعر المسلمون قرب نهـــايتهم ، وأصدر شاعرهم زفرته الحزينة فقال :

يا أهـل أندلس شدوا رواحلـكم فما المقام بهـا إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سفط

ولم يوقف الاندلس فى تلك الآونة من المضى قدما فى طريق الفناء سوى مقدم المرابطين من أفريقية ،وانتصارهم على النصارى فى موقعة (الزلاقة) الشهيرة ثم قضائهم على ملوك الطوائف .

وقضت البلاد فى ظلهم ، وفى ظل الموحدين من بعدهم حقبة مليئة بالكفاح وبالحروب الأهلية حتى كانت سنه ٦٠٩ ه فهزم المسلمون هزيمة منكرة فى موقعة «العقاب» وما لبث أن ظهر بعض الثوار ، وفي مقدمتهم : ابن هود وابن الأحمر فبدأ الدور الأخير على مسرح الحياة السياسية فى الأندلس.

استولى ابن هود علي شرق البلاد ، وسيطر ابن الأحمر علي غرناطة ثم ألقت بهم المطامع فى طريق المقاومة فالتقى الثائران ...

وعاد شبح الفناء يهدد الأندلس من جديد ، فقد استغل الأعداء وهن قوة المسلمين وضرب بعضهم رقاب بعض فانقضوا على ما بقي بالبلاد من قواعـــد .

وتساقطت المدن فى يد الأعداء تباعا :

قرطبة سنة ٦٤٣ ه

بلنسية سنه ٦٣٦ هـ

مرسية سنه ٦٤١ هـ

جيان الحرير سنه ٦٤٣ هـ

أشبيلية سنه ٦٤٤ هـ

ثم أذن الله لعناصر القوة والتماسك أن تقوم من جديد في الأندلس المسلمة فظهرت مملكة غرناطة التي قامت فى الركن الجنوبي الغربى من شبة الجزيرة .

واستمرت حتى دب النزاع فيها بين أولى الأمر فى وقت تجمع فيه النصارى من إسبانيا ، وإيطاليا ، وفرنسا وغيرها وتعاونوا فى سبيل طرد المسلمين نهائيا من الأندلس .

وتم لهم ذلك سنه ٨٩٧ هـ .

لقد إضطربت حياة المسلمين فى الأندلس ، واتسمت سياستها هناك بشيء غير قليل من الفوضى وعدم الاستقرار . أن أصبح الناس فى سربهم آمنين أمسوا على ثورة زعيم ، أو أغارة نصارى أو تذمر عسكر .

وكثيراً ما ترتب على هذا صراع وجريان دماء فتفتح المقابر عيونها ، كما تفتح السجون والمعتقلات أبوابها تستقبل طوائف الوافدين الذين يتلقون ألوانا من الضرب والتعذيب فى غير رحمة .

وكان لهذا كله أثره فى أهل الاندلس ، إذ طبعوا على القسوة والغلظة وحب القتل والتلذذ بمناظر الدماء .

وما من بلد عرف أهله بمصارعة الثيران معرفة الاندلسيين بها .

ولعل العلماء ـ أو بعضهم ـ كان يخلق لنفسه الجو الهادىء الذى يسود فيه العلم برغم الفتن والقلاقل التي تدور حوله .

يضاف إلي هذا أن الفترات التي كان يتصدى للحكم فيها حكام عظماء تعدمن فترات الخصب العلمي .

هذا إلي أن تفتت الأمة السياسى ، وانقسامها فى بعض الأوقات إلي ولايات وممالك صغيرة كان يؤدى ـ فى الغالب ـ إلي تنافس بين الرؤساء علي تقريب العلماء والأدباء ، ليرفعوا شأنهم ، ويخلدوا ذكرهم ، أو ليزينوا بهم ـ علي الأقل ـ مجالسهم .

كذلك مما ساعد علي إزدهار الحياة العلمية فى الأندلس انتشار المدارس المختلفة .

وقد نقل الأمير علي ، صاحب كتاب « تاريخ الإسلام » أن العرب أنشأوا المدارس المختلفة فى قرطبة ، وأشبيلية ، وطليطلة ، وغرناطة ، ومالقة ، وغير ذلك من المدن .

وأن غرناطة وحدها بلغ عدد مدارسها سبع عشرة مدرسة كبرى ، و ١٢٠ مدرسة صغرى [1] .

والظاهر أن الامير عليا هذا نقل كلامه عن الافرنج ، وهؤلاء ربما يعنون مدارس المساجد التي كانت منتشرة حين ذاك .

---

1) Amcey Ali's short History of the Saycens. 627.

يؤيد ذلك ما جاء في نفح الطيب من أنه : (ليس لأهـــل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة . فهم يقرأون لان يتعلموا ، لا لأن يأخذوا جاريا) [١] .

وإذا كان العلم يدرس من أجل العلم لا من أجل غاية ،وبدافع من نفس الدارس وليس بدافع دنيوى تهيأت له البيئة الصالحة للنمو والتطور.وكذلك كان الحال في الأندلس .

وإذا كان الأندلسيون لم ينقلوا عن المشارقة النظام الخاص ببناء دور العلم المستقلة فقد شغفوا باقامة المكتبات على مثال ما عرف في المشرق ، وتوفرت همم ملوكهم وأمرائهم ، وعلمائهم على تشييدها ، وحشد الكتب من كل الفنون فيها ، وجمعها من كل مكان . وبذل النفيس في سبيل ذلك .

ويحتفظ التاريخ في صفحاته الخالدة أن الحكم بن المستنصر أرسل إلى أبي الفرج الأصفهاني ـ وكان معاصراً له . . ألف دينار ذهبا ليرسل إليه كتاب الأغاني قبل إخراجه إلى بني العباس .

وفعل نحوا من ذلك مع القـاضي أبي بكر الأبهري المالـكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم فاجتمع بهذا وغيره للحكم من الكتب ما لم ير له نظير في الإسلام [٢] .

ويقال : إن فهارس مكتبته بلغت أربعة وأربعين فهرسا ، كل فهرس

---

١) المقرى : نفح الطيب ١٠٦/٢ ، ٠٧ .

٢) جورجي زيدان : التمدن الإسلامي ٢٢٩/٣ .

اختصت به كراسة اشتملت على عشرين ورقة [١] .

واقتدى بالحكم رجال دولته ، ومن جاء بعدهم ، فتعددت المكتبات في سائر بلاد الأندلس حتي قيل : إن غرناطة ـ وحدها ـ كان بها نحو من سبعين مكتبة عامة .

وأقيمت للكتب أسواق خاصة بعد أن أصبح جمع الكتب من شارات الوجاهة وإمارات الرياسة .

ومن أعجب العجب أن الامير أو الوجيه كثيراً ما كان يشترى الكتاب، ولا يدرى ما فيه ، ويحتمل أن تكون فى بيته خزانة كتب وهو لا يعرف القراءة ، ولكن ليقال : إنه يملك خزانة كتب ، أو ليقال : هذا الكتاب ليس عند أحد غيره ، أو ليقال الكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله ظفر به فلان .

قال الحضرمى : [٢]

أقمت بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء إلي أن وقع وهو بخط فصيح ، وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع إلي المنادى بالزيادة علي إلي أن بلغ فوق حده ، فقلت له : ياهذا أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه ما لا يساوى .

---

١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤ ٤٦ .

٢) المقرى : نفح الطيب ١/٥ ٢ ، ٢١٦ .

قال الحضرمي :

فأراني شخصا عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده .

فقال لي : لست بفقيه ، ولا أدري مافيه . ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . . . ،

فكلام الحضرمي يعطي صورة عما كان يحدث في الأندلس عندما أشرقت شمس النهضة العلمية عليها ، وأصبح العلم من أهم المفاخر هناك .

فقد أكب الناس على شراء الكتب حتى ذوي الجهالة . أولئك الذين أرادوا أن يستتروا خلفها ، ويظهروا في ثياب العلماء ، أو رغبوا أن تكون لهم مفخرة بين الأصدقاء والنبلاء .

كما يتضح من كلامه مدى الجهد الذي كان يبذله العلماء في سبيل الحصول على الكتب وكيف كانوا يقضون الليالي ذوات العدد يتنقلون في الأسواق من أجل الفوز بكتاب يرغبون فيه .

وهنا يحق القول بأن إقبال أهل الاندلس على العلم بدافع من ذات أنفسهم ، وتشجيع أولي الأمر لهم باقامة المكتبات ، وبذل العطاء ، وتقريب العلماء والآدباء كان من أهم البواعث التي سارت بأهل تلك البلاد سيرا حثيثا في موكب العلم ، حتى أصبحت الاندلس شعلة منيرة تضيء ماحولها

فى وقت خيمت فيه ظلمات الجهل على ما يجاورها من البلاد .

ولقد شهد بذلك مؤرخو الغرب أنفسهم فقال لابن بول فى مستهل كتابه « تاريخ العرب فى أسبانيا »[1] :

لبثت أسبانيا فى قبضة المسلمين ثمانية قرون ، وضوء حضارتها الزاهر يبهر أوربا ، وأزهرت بقاعها الخصيبة بمجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير ، ووادى يانا ، فلم يبق ثمة مايذكرنا بماضيها المجيد سوى الأسماء . . .

وتقدمت بها الآداب والعلوم ، والفنون دون سائر الأقطار الاوربية الاخرى فهرع إليها الطلاب من فرنسا ، وألمانيا وانجلترا ليردوا مناهل العلم التى كانت تفيض على البلاد العربية دون غيرها .

كان جراحو الأندلس وأطباؤها من أبطال العلم ، ونوابغ الفنون ، ونبغت بقرطبة نسوة طبيبات شجعن على المثابرة فى الدرس ، والتعمق فى البحث .

ولم تثمر . وتكتمل زهرة العلوم الرياضية ، والفلكية ، والنباتية ، والتاريخ ، والفلسفة والتشريع إلا فى أسبانيا العربية .

ومهر العرب الاسبان فى الزراعة، وطرق الرى الفنية ، وفى التحصين ، وبناء السفن وفى صناعه الغزل .

---

١) ينظر كتاب تاريخ العرب فى أسبانيا لمحمد عبد الله عنان ص ٢١٢ (طبعة سنة ١٩٢٤) .

كذلك نبغوا فى فنون الحرب نبوغهم فى فنون السلام ، فلبثوا زمنا مديدا فى طليعة المتفوقين الظافرين .

وبينما كانت أساطيلهم تنافس الفاطميين فى سيادة البحر إذا بجيوشهم تحمل النار والسيف إلى أمم النصرانية .

فكل مايدعو إلى عظمة أمة ، وسعادة شعب ، وكل مايؤدى إلى رقى باهر ، وحضارة سامية فاز به مسلمو اسبانيا ...